

البعد الروحي والجمالي للخط العربي

بالتبليغ وايصال الافهام والأفكار الى الغير وانما بطريقة تختلف عن اللفظ فالاول عن طريق الرسم أو الكتابة والثاني عن طريق النطق.

وقد يحدث احيانا ان يقف اللفظ عاجزا عن التعبير بصدق عما يحول بخاطر النفس البشرية في حين يستطيع الخط ولو بشكل نسبي ان يعبر أحسن وأصدق من الأول، ولذلك قيل ان الخط أفضل من اللفظ (2). والواقع ان اللفظ والخط يشتركان معا في البيان ويقومان بنفس الوظيفة ولذلك فان الافكار تترجم بثلاث: بالاشارات، أو باللفظ وبالخط وان الخط هو احسنهم جميعا واعلمهم فائدة.

ومن الفضائل التي يشترك فيها اللفظ بالخط هي انها يؤديان معا نفس المعاني كما سبق التذكير ويقول ابن الصائغ: «وقع التناسب بينهما لانها يعبران عن المعاني الا ان اللفظ بمعنى متحرك والخط بمعنى ساكن وهو يفعل فعل المتحرك» (3). ويقول كذلك العلامة عبد الرحمن بن خلدون: «اعلم ان الخط بيان عن القول والكلام»، كما ان القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني فلا بد لكل منهما ان يكون واضح الدلالة (4) وقيل «أيضا ان الاقلام السنة الافهام».

ولكي ينطبق الرسم والخط مع المعنى المراد تبليغه وايصاله وتكون الدلالة واضحة والمعنى أبين وجب على الخط أن يكون أيضا أوضح وأجمل حتى يكون التناسب اكثر بينهما ويؤدي المعنى والفهم بكل وضوح وجلاء.

وكما كان الرسم اجود وأوضح كان الفهم أيسر وأبين، والبيان مطلوب ومرغوب، ولن يتأتى هذا

ان علاقة الفكر باللفظ علاقة جدلية قائمة منذ ان خلق الله الإنسان وجعله خليفة في الأرض، لذلك هيا له من الأسباب ما يمكنه من خوض غمار الحياة، وجعل له الأدوات الضرورية اللازمة التي تمكنه من اقتحام الصعاب التي قد تواجهه في الحياة، وزوده بالعقل والحواس واللسان حتى يؤدي هذا الدور الذي كلفه الله آياه بعد أن علمه الأسماء كلها.

ومن جملة الأدوات التي منحت له، العقل ليدرك به الاشياء ويتدبر به الأمور التي تحيط به ويفكر في مكنونات الخلق، وفي ايجاد السبل والطرق للتعاش مع محيطه ومع الخلوقات الأخرى التي تهدد بقاءه أو تستوجب منه التعامل معها. وانطلاقا من أن الإنسان كائن اجتماعي بالفطرة فقد زوده الله سبحانه بأداة النطق أي باللسان لكي يجسد به افكاره ويعبر به عن اسراره، ومكنوناته واحاسيسه وكل ما يحول في اعماقه من خواطر وخلجات وأفكار، فهو بذلك يعتبر الأداة المحسنة للفكر بحيث يأخذ هذه الرؤى والتدبير من مجرد أفكار فيترجمها الى فعل ملموس، والى قول ولفظ لها دلالات ومعاني واضحة متحركة، ومن هنا تتجلى العلاقة التي تربط الفكر باللفظ وأهمية كل منهما بالنسبة للآخر، اذ لا يمكن استغناء كل واحد منهما عن الآخر.

وقد روى ان النبي سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام فقال: «ريح لا يبقى، فقال فما قيده؟ قال: الكتابة» (1).

واذا كان الكلام مجرد ذبذبات صوتية تذهب مع الريح ولا تترك أثراً فإن وسيلة قيده وربطه هي الكتابة التي تبقى، ومادام الفصل، بين اللفظ والفكر أمر مستحيل، فإنه يستحيل أيضا أن نفصل بين الخط والفكر من جهة وبين الخط واللفظ من جهة ثانية.

اذ أنها عناصر متممة لبعضها البعض فالخط بصفته وسيلة تعبير وأداة لتجسيم الأفكار يقوم مقام اللفظ

(1) ابي العباس احمد بن علي القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج 3 ص 1 نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج 3 ص 3.

(3) عبد الرحمن يوسف بن الصائغ: تحفة أولى الالباب في صناعة الخط والكتاب تحقيق وتعليق هلال ناجي ص 28. ط 2، تونس 1981.

(4) ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ العلامة ابن خلدون، المجلد الاول، ج 2 ص 753، لبنان: 198.

الشرط الا بتحقيق الشرط الأول وهو بيان الخط وتجويده، لذلك اهتم به الله سبحانه وتعالى فاضاف تعليمه لنفسه وامتن به على عباده⁽⁵⁾ وقال جل جلاله: ﴿خلق الانسان وعلمه البيان﴾⁽⁶⁾ والبيان هنا هو الكلام وقيل أيضا الحلال والحرام. ومهما يكن فإن الكلام بيانه الخط بما يتضمنه من الافهام، والخط أفصح وأوضح من الكلام.

وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه: «الخط الحسن يزيد الحق وضوحا».

فضلا على ان الخط وسيلة تبليغ وتثقيف، وحفظ للحقوق ورهان مادي لا يدع مجالا للشك ولا الطعن فيه في اثبات الحق، والفصل بينه وبين الباطل وبين الحلال والحرام، وهو وثيقة لحفظ العهود ووسيلة كما قلت لنشر العلوم وسفير الاقوام بما لديه من امكانيات لتقليص المسافات بينهم وتقريب الافكار الى بعضها البعض فهو بذلك لسان البعيد. ومن عناية الله عز وجل بالخط ان أقسم به فقال: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾⁽⁷⁾ ومن عنايته أيضا ان أنزل الصحف مكتوبة الى الرسل فقال: ﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة﴾⁽⁸⁾ إن هذه العناية الربانية بالخط والكتابة من أهم الأسباب التي فتحت المجال واسعا للخط العربي بأن يزدهر ويتطور، وهي التي حركت شعور المسلم وحسته الى العناية به ورفعته الى المقام الاعلى الذي وصل إليه الآن. وما فكرة المستشرقين واعتقادهم ان ما وصل إليه الخط العربي من ازدهار، ما هو الا نتيجة للحضر الذي ضربه الإسلام على الفنون التشكيلية كفن الرسم والتصوير والنحت وغيرهم. وبذلك لم يبق امامه الا الخط والتوريق (الأرابسك).

هذا يعد في الحقيقة ضرب من الغلط والتشويه للحقيقة والواقع. ويعلق الدكتور «الحبيب بيده» عن هذه الزعة العنصرية بقوله: «ولا نرى في هذا القول سوى طمس لقيمة الخط العربي كنتاج فني يخفي فكرا جماليا اساسيا يتجاوز مسألة رفض التصوير التشبيهي»⁽⁹⁾.

اذ ان الخطاط أو الفنان المسلم لم يكن ليعتني بالخط العربي ويبذل أقصى ما في وسعه في سبيل تجويده وتحسينه ولم يكن ليشحذ عقله وفكره من أجل ازدهاره لولا ان نزل وكتب به القرآن الكريم حيث قال عز وجل ﴿انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾⁽¹⁰⁾.

هذا فضلا عن الخصائص الطبيعية التي يمتاز بها الخط العربي مثل سهولة التشكيل والامكانيات الكبيرة التي يوفرها الخط لتكوين اشكال ونماذج زخرفية رائعة، بل ولجعل منه في حد ذاته عنصرا زخرفيا بهيجا.

ولولا إيمان الفنان المسلم القوي وحبه الفياض للقرآن ولغته وللخط الذي كتب به ما وصل الخط العربي الى الدرجة المرموقة التي هو عليها الآن وهي درجة لم يصل اليها أي خط من خطوط الأمم السابقة التي عرفت برقي وازدهار حضارتها، كما لا أعتقد إطلاقا بأن خطا غيره سيصل الى الدرجة التي بلغها الخط العربي وهي درجة يحسد عليها، وقد اعترف له بها خصومه أنفسهم.

وقد طلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين لدى قراءتهم للقرآن ان يراعوا فيه قواعد القراءة، وهي الصوت الحسن وتمديد حروفه وكلماته حتى يتسنى للقارئ والسامع معا ان يفهموا معانيه ويتدبروها لكي يكون الأجر أعظم والفائدة أكبر، فقال: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾⁽¹¹⁾.

وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع لها، وقد جاء عن الرسول ﷺ، أنه كان يطلب من الناس

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج 3 ص 1.

(6) سورة الرحمن، الايتان 3 و4

(7) سورة القلم: الآية 1

(8) سورة البينة: الآية 2

(9) د. الحبيب بيده: الخلفية الفلسفية والجمالية للخط العربي (مقال نشر في مجلة الفنون الاسلامية ص 129، دمشق 1989.

(10) سورة يوسف: الآية 2، انظر أيضا سورة الزخرف الآية 3، والشعراء الآية 195.

(11) سورة المزمل: الآية 4

تحسين أصواتهم لدى قراءة القرآن، وكان يفضل سماع الصوت الحسن. وعن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ، قال له «لقد أوتيت زممارا من مزامير آل داود» فقال أبا موسى «لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبته لك تحبيرا»⁽¹²⁾ وقال أيضا: زينوا القرآن بأصواتكم «وليس منا من لم يتقن بالقراءة»⁽¹³⁾. هذه الأحاديث كلها تصب في معنى واحد وهو تحسين الصوت عند قراءة القرآن لأن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا وتأثيرا، كما يزيده حلاوة، ونفوذا إلى القلوب⁽¹⁴⁾ ويعتبر هذا حث أو دعوة ضمنية لتجميل قراءة القرآن وترقيتها بشكل يتناسب وقديسية كلامه عز وجل.

ولما كانت قراءة القرآن وترتيله وتحسين الصوت فيه مرغوبة بل ومطلوبة كان لزاما أيضا على الخط العربي الذي يحوي كلام الله ويشمل معانيه السامية أن يكون بدوره في أحسن صورة وأجل هيئة حتى يكون في مستوى معانيه المقدسة فتكتمل بذلك جمالية صورة الخط بقديسية محتواه، وتقرب النسبة التكاملية بين المعاني الروحية الموجودة في القرآن والمعاني الجمالية الخطية، لذلك تعلق الفنان المسلم بالخط العربي وجعله في مرتبة المعاني السامية المقدسة للقرآن الكريم الذي هو وعاءها، ومن ثم راح يخترق به طريق المجد والتطور بكل صدق وإيمان.

وهذا التعلق والإيمان هو الذي جعل الشعوب الإسلامية ما أن دخلت في الإسلام وعرفت قيمة الرسالة المحمدية وما تحتويه من قيم وأخلاق وشرائع اتخذت منه الرسم الوحيد للغاتها، وساهمت بقدر كبير في رقيه واعطته كل ما تملك من جهد وعناية وجعلته «ملك الفنون» على الإطلاق بجانب فن التوريق (الاراسك) وقد بلغ من التفنن به أن صارت حروفه تتداخل وتتظافر مع بعضها البعض أحيانا وتمتزج بالتوريق أحيانا أخرى في شكل زخرفي معقد يصعب فك حروفه، كما وضع له الفنان قواعد وقوانين فنية بهدف تحسين وجعل حروفه أكثر تناسب

وتناسق ولذلك اعطاه العلامة عبد الرحمن بن خلدون صفة الصناعة الشريفة⁽¹⁵⁾. وصناعة الخط واحدة من جملة الصناعات والحرف اليدوية وهو واحد من جملة الفنون الإسلامية التطبيقية، والصناعة مرادفة للعمل عند ابن منظور⁽¹⁶⁾ ومملكة أيضا عند ابن خلدون⁽¹⁷⁾ والخط أعمق من أن يكون مجرد صناعة ورسم للخطوط والحروف الخالية من الاحساس الوجدانية، بل هو شعور داخلي واحساس وجداني نابع من القلب والروح يحركه العمق الفني والشعور المرفه للفنان فهو أذن انتاج فني كما سبقت الإشارة إليه، وعليه فهو هندسة روحية ظهرت بالة جسمانية كما قال: اقليدس⁽¹⁸⁾ وقال: الكندي: «لا أعلم كتابة تكتمل من تحليل حروفها وتدقيقها ما تكتمل الكتابة العربية»⁽¹⁹⁾ وحتى تكتمل هذه الصناعة وتؤدي وظيفتها على أكمل وجه وظفت لها من الاسباب ما يجعلها تقوم بهذا الدور وهي الحبر والقلم والورق ومواد أخرى مختلفة، وقال العتاي (ببكاء الاقلام بتسم الكتب)⁽²⁰⁾. والقلم هو لسان اليد وأداة الرسم والكتابة. كما استعمل أيضا وحدة اساسية للنسبة التفاضلية التي يعتمد عليها الخط العربي، وحسب رأي اخوان الصفاء فإن كل شيك يقوم على أساس النسبة التفاضلية وهي النسبة التي يعتمد عليها هيكل الجسم البشري ويقولون في إحدى رسائلهم عن الخط «أن أجود الخطوط هي ما كان مقادير حروفها بعضها من البعض على النسبة الافضل»⁽²¹⁾. حتى يكون أفضل

(12) تفسير ابن كثير: ج 7، ص 146 الطبعة الرابعة، لبنان 1983.

(13) تفسير ابن كثير: ج 7 ص 146 الطبعة 4، لبنان 1983.

(14) نزهة المتقين، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للامام الفقيه أبي زكرياء محي الدين يحيى النووي، تأليف مجموعة من الدكاترة ج 1، ص 746.

(15) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق ج 1، ص 2، ص 744.

(16) د. الحبيب بيده: المرجع السابق ص 130.

(17) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق ص 745.

(18) محمد ابن إسحاق النديم: الفهرست، تحقيق وتقديم د. مصطفى الشويخي ص 76 طبع المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر بدون تاريخ.

(19) محمد ابن إسحاق النديم المصدر السابق، ص 79.

(20) محمد ابن إسحاق النديم المصدر السابق، ص 78.

(21) د. الحبيب بيده المرجع السابق ص 133.

للحجة وأوضح للبيان وأرشد للقياس والقانون وقد شبه الخط بالجسم وقيل ان الخط كالروح في الجسد من ذلك ان حسن الهيئة يكون في العين أعظم وأفخم في النفوس ومحبة القلوب⁽²²⁾.

وبناء على هذه النسبة وضعت قواعد للخط العربي حيث جعل من النقطة المربعة للقلم أساس هذه القاعدة.

وتشكل النقطة من سمك القلم الذي ترسم به الحروف حتى يتناسب سمك الحرف مع طوله، والحروف متناسبة سمكا وطولا فيما بينها تكون كالجسم الحسن الطلعة، الذي يكون عرضه مناسبا لطوله فكذاك يجب ان يكون الخط. سأل الصولي بعض الكتاب عن الخط متى يستحق ان يوصف بالجودة.

فقال: اذا اعتدلت اقسامه وطالت ألفه واستقامت سطوره وضاهها صعوده وجدوره وتفتحت عيونه ولم وتشبه رأؤه ونونه الخ⁽²³⁾. ولا غرابة ان يستعمل العرب نقطة القلم كوحدة اساسية للنسبة اذ سبقتهم الى ذلك امم اخرى فاستعمل الاغريق العمود كوحدة في عمارتهم واتخذوا من قطره وحدة قياسية أساسية لاقامة منشأاتهم المعمارية.

لقد كان لعملية هندسة الخط العربي ووضع قواعد له ان ساهمت في انتشاره وسهلت تعلمه للناس كما يسرت في تلقينه كصناعة وكفن للراغبين فيه. ولا شك ان هذه العملية قد مهدت الطريق الصحيح والقويم الذي سلكه الخط في ما بعد ابتداء من عهد الوزير ابن مقلة في مطلع القرن الثالث للهجرة كما ساهمت في توزيع الخطوط واستخراج خطوط جديدة انطلاقا من خط النسخ أو اللين أو المقور كما اسطرح على تسميته وقد استنبط منه عدة أقلام أشهرها: النسخ والريحاني والثلاث والتوقيع والمحقق والرقعة، وهي اشهر الخطوط والأقلام وقد سميت (بالأقلام الست) ويقال ان ياقوت المستعصي هو الذي استخرج هذه الأقلام ووضع قواعدها. فضلا عن الخط الكوفي الذي ضل وسيبقى سيد الخطوط الزخرفية بدون

منازع.

ثم تفرعت من هذه الخطوط خطوط أخرى أشهرها خط الطومار والديواني والتعليق الخ...
وقيل ان الأستاذ ياقوت وهو على فراش الموت يلفظ انفاسه الأخيرة قال: «ان حبر الكتاب تعادل قيمته دم الشهداء»⁽²⁴⁾.

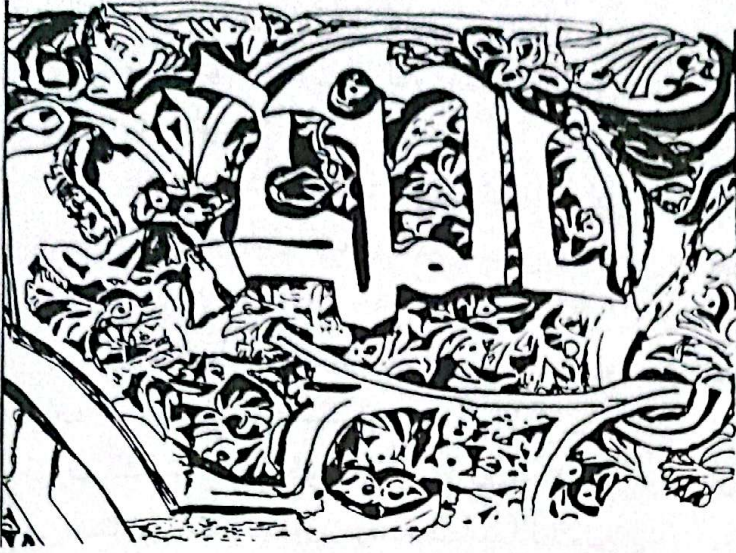
هذه النظرة المقدسة التي يرى بها الخطاط أدواته هي التي أعطت للخط البعد الروحي والجمالي الذي أضفاه عليه الخطاط المسلم وسمحت له بأن يتبوأ هذه المكانة، كما فتحت له مجالات واسعة للاستعمال حيث وظف على اشكال عديدة وعلى مواد مختلفة ومتنوعة في أشكال رائعة وبديعة الجمال فظهرت فيه روح الفنان وعبقريته الخلاقة بكل وضوح وجلاء في شكل شرائط وافاريز واشكال هندسية على الجص وعلى الحجر والرخام والخشب وغيرهم من المواد والأدوات التي كان يتعامل معها في حياته اليومية كأن يحفر تارة بالنقش البارز وأخرى بالفائر وتارة أخرى بالالوان المائية أو الحز الخ... كل ذلك كان يشكل في تناسق رائع وتناسب تام تهش إليه الأرواح وتبتهج له النفوس وترتاح له القلوب عند قرائته أو مشاهدة صورته الجميلة.

مزوز عبد الحق

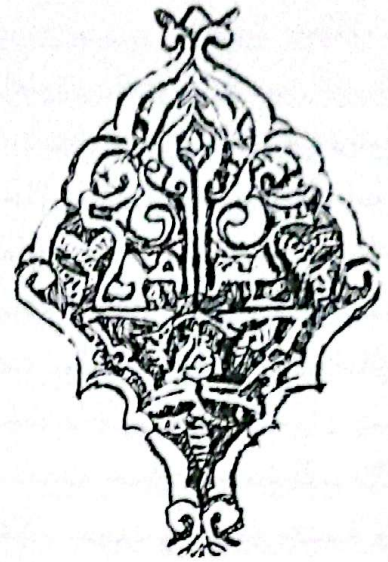
(22) ابن الصائغ: المصدر السابق، ص 33.

(23) ابن الصائغ: نفس المصدر، ص 35.

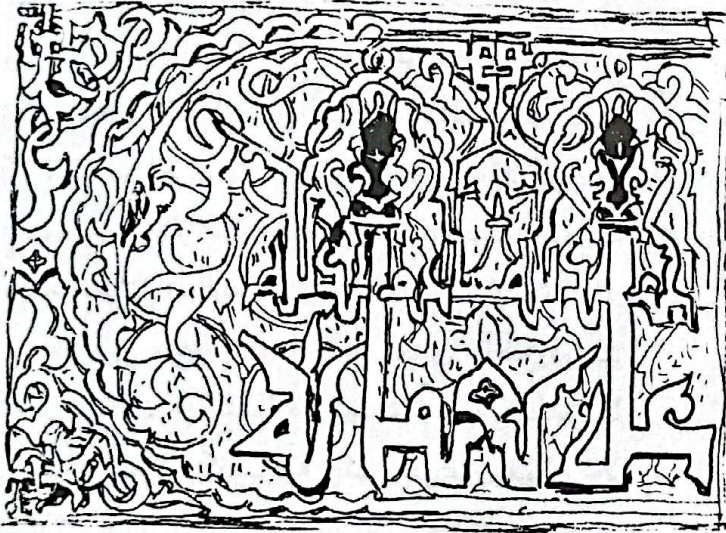
(24) Jalal Asaad Arsevan - l'Arts decoratifs turc - Istanbul



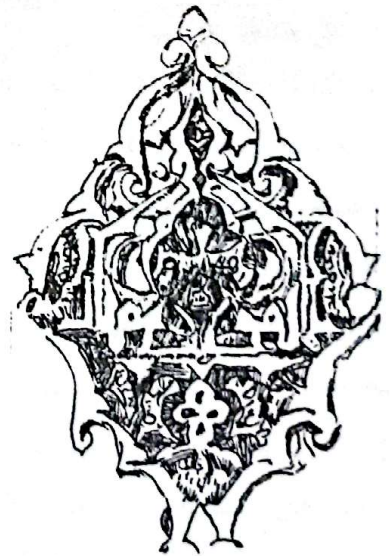
حلية زخرفية بخط كوفي والارابيسك (الجامع الكبير تلمسان)



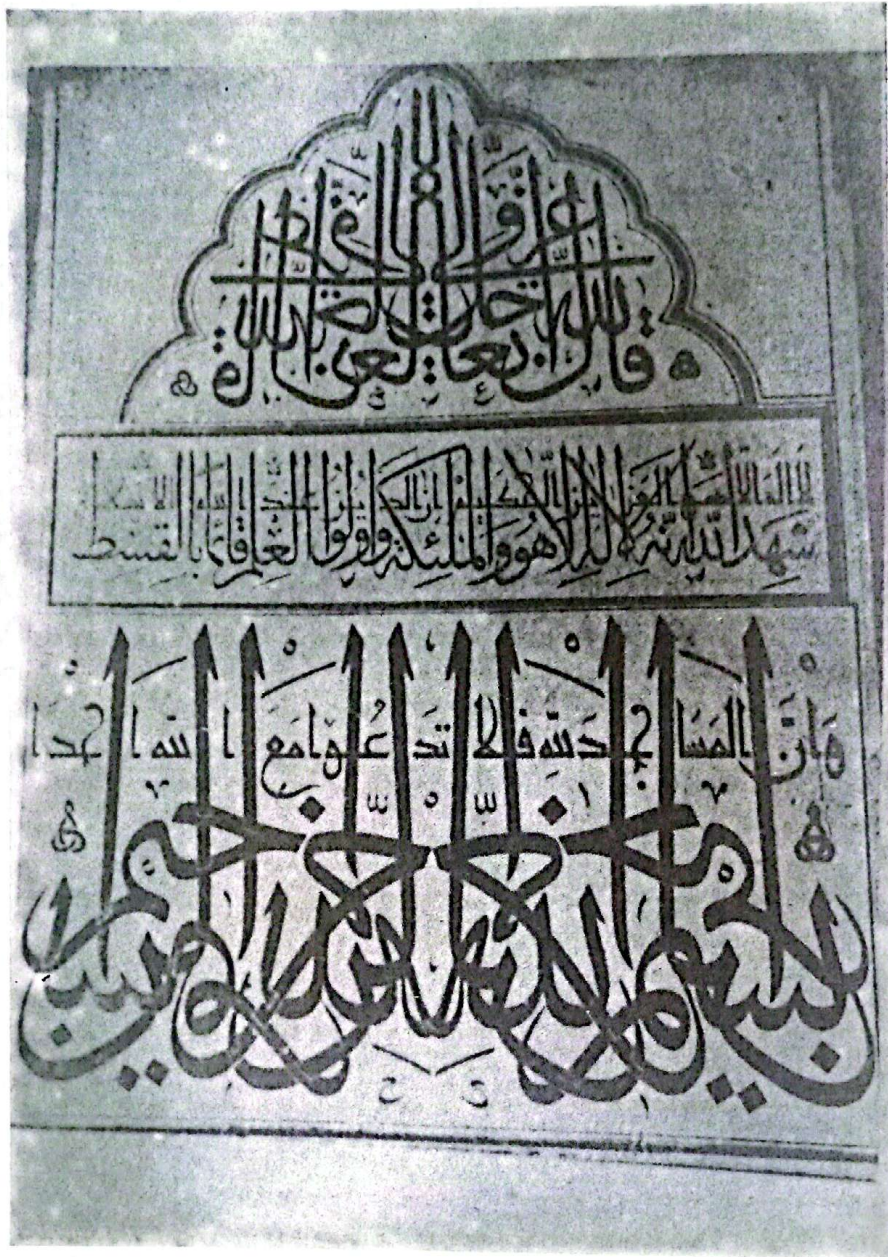
جامع زخارفها من الخط الكوفي والارابيسك
(جامع سيدي بلحسن تلمسان) ع/ج ماري



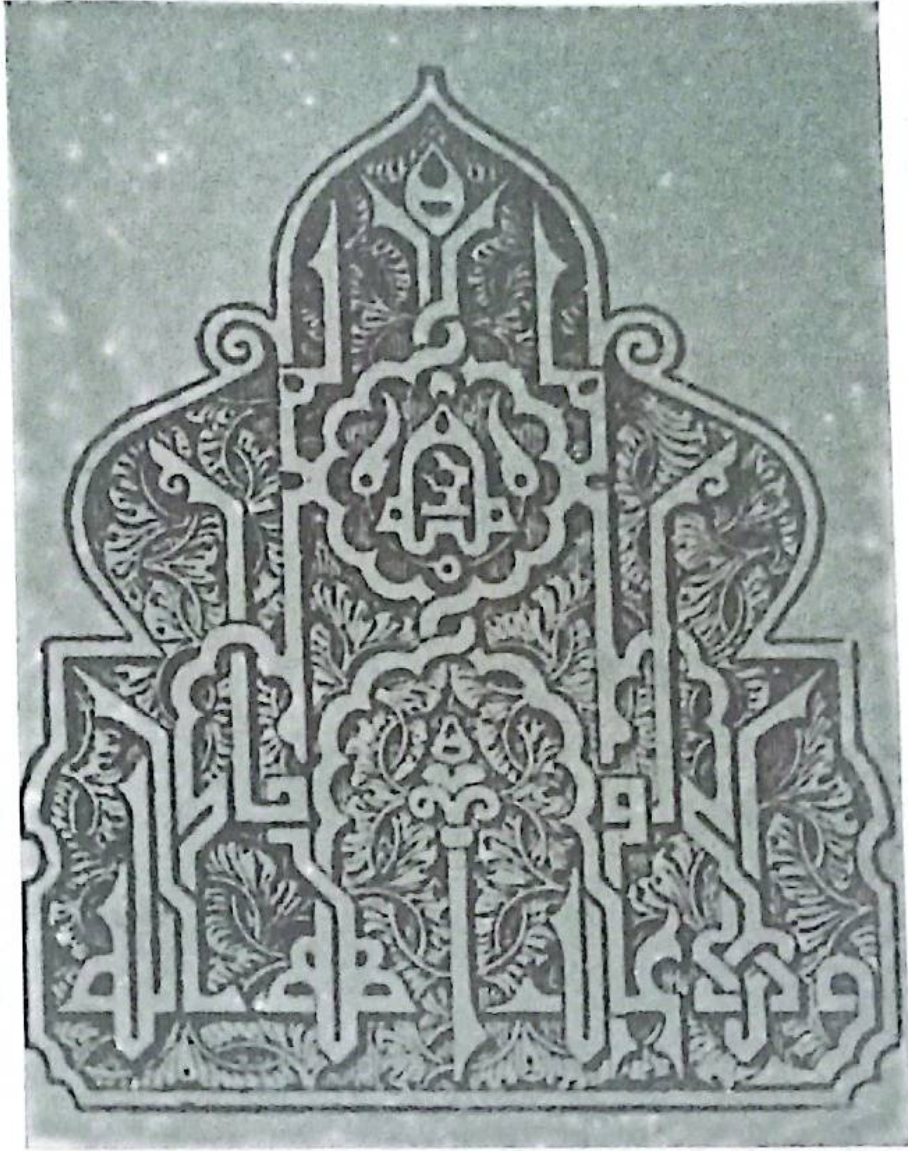
حلية زخرفية بخط كوفي على أرضية نباتية (جامع سيدي بومدين تلمسان) ع/ج ماري



جامع على شكل معين (جامع سيدي بلحسن تلمسان) ع/ج ماري



كتابة مصنعة بخط ثلثي جلي وكوفي
ع/ ناجي عز الدين



زخرفة كتابية بخط كوفي على أرضية نباتية
ع/ ناحي زين الدين

نموذج لميزان حروف خط الثلث
ع/ ناجي زين الدين